# المعرفة بالموروث الدلالي
# دراسة تطبيقية في قصة : العرس

الدكتور
عماد عبد يحيى الحيالي

بسم الله الرحمن الرحيم

تعود الصلة الوثقى بين الأدب و اللّغة إلى الوشائج التي بينهما ؛ على مستويات الصوت والتركيب والدّلالة ، فالأدب تعبيرٌ بالكلمات والجُمل ، واللغةُ منظومة من المفردات الدوالّ على أشياء الحياة وموضوعاتها ، وأن المفاعلةَ الواقعة على مقوّمات الأدب تنعكس تلقائياً انعكاساً مباشراً وغير مباشر على مقوّمات اللغة ، بفعل التكامل الذي بينهما في الاستعمال اللغوي ذلك أنّ اللغةَ صدى المِراس الفنيّ بالقول ، وهي تختلف في استعمالها للكلمات والجمل والتراكيب عن اللغة اليومية في أفكارها وعواطفها وأخيلتها وأسلوبها وجرسها ؛ ولذلك تُدرَسُ وتُؤَصّلُ ؛ لأنّها تكشف باستمرار عن أحوال للقول وقدرات على التعبير لاتتوافر في الكلام اليومي (١).

ولاشك في أن الدّلالة هي الجزء العميق والمهم في اللغة ؛ لأن دراسة اللغة مهمة أساساً بمقدار ماتسهم به في فهمنا ، ولا سيما فهم الجانب الخلاق في استعمالنا لمادتها (٢) .

(١) ينظر : الأسلوب واللغة ، عدنان بن ذريل ، مجلة المعرفة ، دمشق ، العددان ٢٠٥/٢٠٦ ، ١٩٧٩ : ١٥٩ .

(٢) ينظر : محاضرات ودن تأملات في اللغة ، تقديم جومسكي ، ترجمة : د. جواد باقر د. عبدالجبار محمد علي ، مراجعة : د. عبدالباقي الصافي ، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ، ١٩٩٠ : ٧٦ .

وإذا كانت المعجمات تقدّم مستوى دلالياً مجرداً واحداً مستخلصاً من الإدراك الإنساني السابق ، فإن المفردة في أيّ نص تمثل مستويين : عقلياً ونفسياً يستندان إلى النظام المعرفي ، وهذا يعني : أنّ المفردات المعجمية يمكن أن ترتبط بمبادىء تشكل نوعاً من الجوهر المركزي لنظام من الأفكار المستندة إلى الإدراك العام ، فيكون استعمالها حالة معرفية يحققها الأديب في مرحلة من مراحل نضجه ، وتتضمن هذه الحالة المعرفية بُنى للعادات والاستعدادات وقدرات لاستعمال البُنى المعرفية السابقة التي يتمثلها ويعمل على إغنائها بالجديد الابداعي (٣) .

ويخطىء من يظن أن المفردات المعجمية محنطة ميتة في صفحات المعجمات (٤) ؛ لأن تداعي دلالاتها لاينفكّ عن المفردة المستعملة في النص ، فضلا عن المستوى الدلالي الذي يُخلقُ للمفردة في النص الإبداعي ، وتلك هي الوظيفة الثنائية بمستوييها الدلالي والاسلوبي أو المعرفي والتعبيري (٥) .

ولا نحسب أنّ من حقّ المبدع في أيّ عصر أن يزعم لنفسه أنّه الوحيد الذي يطور اللغة وينميّها ؛ لأنّ كل انسان قد استعملها بثّ في ثناياها شيئاً من التطوّر والانماء ، فكلّما أمعنت الكلمة في القدم كانت أملأ بحياة الذين اتخذوها أداةً للتعبير ، وليست اللفظة في حقيقتها رمزاً يشير إلى فكرة ومعنىً فحسب ، وإنّما هي نسيج متشعب من صور ومشاعر أنتجتها التجربة الانسانية ، فالأديب الغنيّ بألفاظه أوسع حياة من سواه ، والمتلقي القدير على استخراج المعاني من ألفاظها أعمق حياة من سواه أيضاً (٦) .

ويهدف بحثنا الدّلالي هذا لكشف الحالة المعرفية التي حققها أديبٌ بعينه في مرحلة من مراحله في زمن الحرب ، لنقف على البنى المعرفية واستعمالها

---

(٣) م.ن : ٤٢-٤٤ .

(٤) ينظر : فنون الأدب ، هـ.ب، تشارلتن ، تعريب : زكي نجيب محمود ، سلسلة الفكر الحديث ، العدد الثاني : ٤-٥ .

(٥) ينظر : علم الدلالة ، بيار غيرو ، ترجمة انطوان أبو زيد ، منشورات عويدات بيروت — باريس ، ط١ ، ١٩٨٦م : ٥٠ .

(٦) فنون الأدب : ٧-٨ .

في نص قصصيّ أنتجه ،من خلال التحليل الدلالي لعدد من مفرداته وتراكيبه وقد وقع أختيارنا على قصة : العرّس لنجمان ياسين ، ليس بوصفها نموذجاً فريداً في قصص الحرب القصيرة ، بل بوصفها نصاً من نصوص القصص القصيرة التي كتبت في زمن الحرب ، يتمتع صاحبها بتجربة في كتابـــة القصة تبدأ منذ أواخر الستينيات ، فضلا عن كونه (أكاديمياً) متخصّصـــاً بالتاريخ ، يفترض أن يكون على صلةٍ بالموروث الدّلالي لمفرداته وتراكيبه وعلى معرفة بها .

أمّا على مستوى المفردات فقد تناولت دراستنا المفردات الآتية :ـ

ـ العُرسُ :

وردت مادة اللفظ في القصة تسع مرات ؛ ثلاثاً منها بلفظ (عُرُس) وستاً بلفظ (عروس)،والأصل الذي تعود إليه مادة اللفظ الملازمة ،والعُرسُ ـ يضبط بضمة وبضمتين ـ: حدث الزّفاف،والأيام الأوَلُ من الزواج(٧) والعُرُس ـ أيضاً ـ طعامُ الزفاف (٨) ، وأطلق على كل من الرجـــل والمرأه لفظ (عروس) (٩) ، لملازمة أحدهما الآخر ،وأطلق لفظ (العرْس) ـ بالكسر ـ على زوج الرجل (١٠) ، ومن هنا يكون ضبط المفردة في عنوان القصة أمراً ضرورياً لتجنب الإشكال الدلالي .

ويبدولي أن القاص قد استعمل لفظ العُرْس للدلالة على طعام الزّفاف أو مايقترن بحدث الزفاف من أعرافٍ وتقاليد في قوله : «ومن ثمّ تدعو نسوة

---

(٧) معجم مقاييس اللغة ، ابن فارس ، تح : عبدالسلام هارون ، دار الفكر : ٢٦١/٤ـ ٢٦٢ .

(٨) كتاب المذكر والمؤنث ، ابن الأنباري ، تح : د. طارق عبد عون الجنابي ، ط١ مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٧٨ : ٣٤٥ .

(٩) الصحاح ، الجوهري ، تح : أحمد عبدالغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٣ ١٩٨٤ : ٩٤٧/٣ .

(١٠) المثلث ، ابن السيد البطليوسي ، تح : صلاح مهدي القرطوسي ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٨٢ : ٢٨٤/٢ .

(١١) مجموعة : حكايات الحرب ، نجمان ياسين ، دار الشؤون الثقافية العامة : بغداد ، ١٩٨٧ : ١١.

الحيّ إلى الإعداد للمأتم بعد أن كانت قد دعتهنّ إلى العرس» ، فلفظ العرس يقابل لفظ المأتم ، ولا شك في أنّ المأتم مستعمل بدلالته المقترنة بحدث الموت الاستشهاد ـ ؛ لأن المأتم في أصله : النساء يجتمعن في الخير والشرّ ، وعند العامة : المصيبة ، يقولون : كنا في مأتم فلان ، والصواب أن يقال : كنا في مناحة فلان (١٢) ؛ واستعمال القاص للفظ من باب تخصيص الدلالة .

ونلحظ أنه منذ البدء قد وضعنا أمام اختزال دلالي في الوقت الذي تمثل فيه المفردتان تضاداً دلالياً يكشف عن بعد في شخصية الأم التي تمزّقت بين حدث استشهاد ولدها وحدث زفافه المنتظر ، ولكنّ حالة الملازمة تنهض في القصة من خلال ما يحكى عن الأم : دخلت غرفة العرس » (١٣) ، فقد وردت مفردة العرس مضافاً اليها مفردة الغرفة ، مما يشير إلى تلازم العروسين مكانياً في إحساس الأم ، في حين تتحول الغرفة إلى غرفة العروس في نهاية القصة ، بعد أن يؤتى بتابوت الفتى فيدخل فيها ، فقد وردت مفردة العروس مخصصة بالفتاة بدلالة اقترانها بتابوت الفتى ، مما يشير إلى انفصال حالة التلازم ، وقد أخذ العرس دلالة جديدة في نهاية القصة ، إذ تحوّلت المناحة إلى عرس بأعرافه وتقاليده كلها : استدارت ثمّ خرجت وقالت للرجال : لنحتفل » زغردت الأم فزغردت العروس ثم زغردت النسوة ، ومزق السماء رصاص كثيف .. (١٤) .

ـ النبأ :

وردت مفردة النبأ في مستهل القصة في قول الراوي : « في البداية حلّ النبأ في جسد الأم كالصاعقة »(١٥) ، وكأنّا به قد استعملها بقصد ، وإلا لماذا لم يستعمل مفردة ( الخبر ) مثلاً ؟ وعلى الرغم من أن المعجميين يحدّدون

(١٢) الصحاح : ١٨٥٧/٥ .
(١٣) مجموعة : حكايات الحرب : ١١ .
(١٤) م . ن : ١٤ .
(١٥) م.ن : ١١ .

معنى النبأ بأنه الخبر (١٦) ، لكن ثمّة فرقاً دلاليـاً بينهمـا ، فالخبـر : العلم (١٧) ، بالأشياء المعلومة من جهة الخبر (١٨) ، قال تعالى – : ( والله بما تعملون خبير ) (١٩) ، في حين يكون النبأ متصلاً دلالياً بالصوت الخفيّ (٢٠) ، قال ذو الرمة (٢١) :

وقَدْ توجّسَ ركزاً مُقْفِرٌ نَدِسٌ بنَبْأةِ الصوتِ ما في سمعه كَذِبُ

ويتصل من جهة أخرى بمجيئه من بلد أخر (٢٢) ،قال – تعالى – : ( ... وجئتُكَ منْ سبَأ بنبأ يقين ) (٢٣) ، ويقال : سيل نابيءٌ ورجل نابيءٌ (٢٤) ، قال الأخطل (٢٥) :

ولكنْ قذاها كُلُّ أشعثَ نابيءٍ أتَتْنابهِ الأقدار منْ حيثُ لاندري

ونلمح في دلالته صلته بما هو مُغَيّب عن إدراك الإنسان كما في بيت الأخطل المذكور آنفاً ، أو في قول حُنيش بن مالك (٢٦) :

فنَفسكَ أحرزْ فَـإنّ الحتو فَ ينبـأنَ بالمرء في كل وادِ

ويتّصل اللفظ أيضاً بسياق التهويل والتعظيم والتعجيب الذي يؤدي إلى الاختلاف في شأن المنبأ عنه ، كما في قوله – تعالى – : (عمّ يتساءلون عن النبأ العظيم . الذي هُمْ فيه مختلفون) (٢٧) .

(١٦) ينظر : الصحاح : ٧٤/١/المقاييس : ٣٨٥/٥/ أساس البلاغة ، الزمخشري ، دار صادر – بيروت ، ١٩٦٥ : ٦١٢ .
(١٧) المقاييس : ٢٣٩/٢ .
(١٨) المفردات في غريب القرآن ، الراغب الأصفهاني ، تح : محمد سيد كيلاني ،دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت : ١٤١ .
(١٩) سورة البقرة ، من الآية ٢٣٤ .
(٢٠) الصحاح : ٧٤/١ .
(٢١) ديوانه ، طبع كمبردج ، ١٩١٩ : ٢١ .
(٢٢) الصحاح : ٧٤/١ // المقاييس : ٣٨٥/٥ .
(٢٣) سورة النمل ، من الآية ٢٢ .
(٢٤) الصحاح : ٧٤/١ // المقاييس : ٣٨٥/٥ .
(٢٥) الصحاح : ٧٤/١ ، وفي ديوانه : رمتنا به الغيطان من حيث لا ندري : ٦٥٤ .
(٢٦) الصحاح : ٧٤/١ ، وفي الأساس خنيش بن مالك : ٦١٢ .
(٢٧) سورة النبأ ، الآيات ١–٣ .

أمّا اللفظ في قصة العرس فقد استوعب جلّ هذا الموروث الدّلالي ، إذ اقترن بحدث هائل عظيم تفصح عنه العلاقة التشبيهية : «حل النبأ في جسد الأم كالصاعقة» ؛ فالمشبه (حلول النبأ في جسد الأم) غائم مجهول المعالم ، لكن ورود الكاف مع المشبه به (كالصاعقة) يبعث في العلاقة القوة المكافئة للمشبه ، فتزيل ما ألمّ به من غموض ، ولا يخفى ما في هذا التشبيه من قوة موحية بمدى الهول الذي أصاب الأم .

ويظهر الاختلاف في شأن مواجهة ما أنبئت به الأم في داخل نفسها بسلسلة التساؤلات المترددة بين مباشرة عدة أفعال : تفعل / تبدأ / تمزّق / تلطم / تدعو / دعت (٢٨) ، أو التردد بين تكذيب النبأ — لعدة مسوغات تختلقها «لا بد أنّ ما سمعته لم يكن سوى حلم مزعج ، أو ربما كان كل ما حدث مجرد سوء فهم» (٢٩) — وتصديقه ؛ لاقتران النبأ بصورة الجندي الغاضب المرتعش الذي اعلمها بموعد وصول الجثة (٣٠) ويوحي اللفظ بمجيء الخبر من ارض اخرى بدلالة اقترانية «حين اعلمها عن موعد وصول الجثة» (٣١) التي تشير إلى مغايرة المكان . وأما صلته بما هو مغيبّ عن إدراك الإنسان ، فيلمح في أنّ جميع ما قامت به الأم من تطويق صبيها بالتعويذات والرقى ، وتطوافها به على أبواب البلد كي تحصنه ضد الحسد ليكون قمراً مكتملا لم تُجْدِ نفعاً ، إذ اصبح ذلك القمر منثوراً (٣٢) . فمسألة الحياة والموت اقدار مُغيبة لا يستطيع الإنسان التحكم فيها ، فتبقى حقيقتها خارج الإدراك الحسّي

— يرتعش :

تدل صيغة المفردة على الحدوث والتجدد (٣٣) ، مما يسهم في تصوير حركة

(٢٨) ينظر : مجموعة : حكايات الحرب : ١١ .
(٢٩) م . ن : ١١ .
(٣٠) ينظر : م . ن : ١١ .
(٣١) = م.ن : ١١ .
(٣٢) م . ن : ١١ .
(٣٣) = معاني الأبنية في العربية ، د. فاضل السامرائي ، ط١ ، ١٩٨١ : ٩٠

الشخصية الخارجية التي تعكس الانفعال الداخلي، وتدل مادة اللفظ في أصلها على حركة ضعف واضطراب وارتعاد (٣٤) ،

فيقال : شيخ رَعِش ومُرْعَش، وأرعشه الكبر ورعشه، وأرعشت يداه، وتقول : ارتعدت مفاصله وارتعشت انامله، وفلان يرتعش رأسه من الكبر ويرجف ومن المجاز : فلان رَعِشُ اليدين : جبان (٣٥) فهل كانت دلالة المفردة في القصة دائرة في هذا المعنى ؟

يصف القاص الجندي الذي نقل النبأ بقوله : « ولكن الجندي الذي نقل النبأ اليها كان يرتعش غضباً (٣٦)، فاقتران الارتعاش بالغضب يزيح دلالة المفردة من دائرة الضعف والاضطراب إلى دائرة الحركة الغاضبة ، وذلك معنى مستلهم من موروث دلالي مجازي ، إذ يقال : إنه لَرَعِشٌ إلى القتال وإلى المعروف : سريع اليه ، وبه رعشة إلى لقاء العدو ، وأرعشته الحرب : أعجلته، ودابة رعشاء منتفضة من شهامتها ونشاطها (٣٧) ، فدلالة الفعل إذن فيها معنى القوة لا الضعف، وهذا يتسق مع الموروث الدلالي قصداً او عفواً .

**القمر :**

وردت هذه المفردة في النص أربع مرات ، وصف القمر مرة بالبهاء والاكتمال ، وثلاثاً بالانتشار، والقمر إنما يكون بعد ثلاث ليال إلى اخر الشهر وسمي قمراً لبياضه(٣٨) ويبدو أن استعمال هذه المفردة لا ينفك عن موروثها الدلالي ايضاً ، فقد مثلت القمر في الأساطير اليونانية الطفلة ديانا ابنة لاتونا . (الليل) من زيوس (السماء) ، وقد اثرت ديانا ان تظل طوال عمرها عذراء وكان الفنانون اليونانيون يصورونها في صورة غادة ميساء ناعمة اشتملت لباس

(٣٤) = المقاييس : ٢ /٤١٢ .
(٣٥) الأساس : ٢٣٧ .
(٣٦) مجموعة حكايات الحرب : ١١ .
(٣٧) الأساس : ٢٣٧ .
(٣٨) الصحاح : ٢/٧٩٨ . وينظر : الأنواء في مواسم العرب ، ابن قتيبة ، دار الشؤون العامة ، بغداد ، ١٩٨٨ : ١٣٨ .

صيدها القصير ، ومعها قوسها وكنانة سهامها ، وعلى رأسها هلال صغير ، وقد امسكت برأس ظبي من صيدها . ونصيبها في اسطورة (نيوب) ما تقوم به من المد والجزر والدفء (٣٩) .

في حين نجد القمر في التراث العربي بمنازله المتغيرة قد ارتبط منذ زمن مبكر بطقوس الزراعة والخصب واستنزال المطر ، وهو دليل الركب ورسول القوافل ، ومما يؤكد ان القمر مرتبط بنزول المطر في ذهن العربي انّ الثور وهو التجسيد الأرضي لعبادة القمر السماوي مستقره الليل ، ونحن نلحظ أنّ نزول المطر في شعر ماقبل الاسلام لا يكون إلاّ ليلاً ، وعندما تأتي الشمس يتوقف سقوط المطر (٤٠) .

ويتمثل الموروث الدلالي في وصف النسوة الطفل الوحيد بالقمر البهي ، ويبدو أنّ تشبيه الطفل بالقمر في الموروث الشعبي يرجع إلى أسطورة ديانا لما تتصف به من الحسن ، كما يرتبط طلب نسوة الحي من الأم ان تطوف بالوليد أبواب البلد كي يتحصن من الحسد فيكتب له الاكتمال بالطقوس التي كان يتبعها العرب في الاستسقاء واستنزال المطر ، هذا فضلاً عن انّ ابتلاع الحوت للقمر في الموروث الشعبي الذي يعلل به انحباس المطر يقابله في القصة ابتلاع التابوت للقمر المنثور .

وإذا كان القمر دليل الركب ورسول القوافل عند العرب فالفتى (القمر) في القصة قائد بين أصحابه يحدثهم عن الوطن والرسالة وتاريخ الأجداد ، وهذا الفتى لا يعود إلى البيت ليلا لأنه يحرس أرض الوطن ، إذن هو رمز الأمان الذي يكافىء الخصب واستنزال المطر على ارض الوطن ، «حينذاك بدأت تدرك اسباب عدم عودته إلى البيت في بعض الليالي ، (٤١) وكانت ترفع وجهها إلى السماء وتهمس : لتكن خفارته برداً وسلاماً » . وإذا كانت ديانا

(٣٩) ينظر : أساطير الحب والجمال عند اليونان ، دريني خشبة ، دار الشؤون الثقافية ، العامة ، بغداد ، ١٩٨٦ ، ١/٤٩ ، ٤٥ .

(٤٠) = المطر في الشعر الجاهلي ، د. أنور أبو سويلم ، دار عمار ، عمان ، ط١ ، ١٩٨٧ : ١٥٦ ، ١٧٢ .

(٤١) مجموعة : حكايات الحرب : ١٣ .

(القمر) ترتدي لباس صيدها وتحمل قوسها وكنانة سهامها وتمسك برأس ظبي من صيدها، فالتقمّر في العربية خروج الأسد ونحوه في القمراء طلباً للصيد، قال الشاعر (٤٢) :

أبلغ عُثيمةَ أنّ راعي إبلِهِ سقطَ العَشاءُ بهِ على مُتَقَمِّرِ
سقطَ العشاءُ بهِ على مُتَقَمِّرِ حامي الذمار مُعاود الأقرانِ

ومن المفارقة الدلالية ان تكون خفارات الفتى ليلاً، وانه كان يسمي عروسه الظبية السمراء (٤٣) .

وإذا كانت ديانا قد اثرت ان تظل طوال عمرها عذراء فالفتى ايضاً لم ينل حظه من الزواج فكان قمراً منثوراً، إلا ان القاص لم يجعل من انتثار القمر نهاية، بل ذكر ان ذلك القمر المنثور إنما يخرج من التابوت ويتحول إلى طير يفرد جناحيه محلقاً صوب الجنة (٤٤) .

فخروج القمر من بطن الحوت في الموروث الشعبي يليه الغيث والخصب، وخروج القمر المنثور من التابوت وتحوله إلى طير يحلق صوب الجنة رمز لخصب حياة الشهيد، وليس أدلّ على ذلك من قول رسول الله — صلى الله عليه وسلم : «إنّ ارواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك اطلاعة، فقال : ماذا تبغون ؟ فقالوا يا ربنا، واي شيء نبغي وقد اعطيتنا مالم تُعط احداً من خلقك؟ثم عاد عليهم بمثل هذا، فلما رأوا انهم لايتركون من ان يسألوا قالوا : نريد ان تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة اخرى — لما يرون من ثواب الشهادة — فيقول الرب جل جلاله : إني كتبت انهم اليها لا يرجعون »(٤٥) .

(٤٢) الصحاح : ٢ /٧٩٨-٧٩٩ .
(٤٣) ينظر : مجموعة : حكايات العرب : ١٣ .
(٤٤) = م.ن : ١٤ .
(٤٥) رواه مسلم في صحيحه .

- الفزعة :

وردت هذه المفردة صفة للروح في قوله : « وتضمّه إلى روحها الفزعة »(٤٦) ، ويدور الفزع في اللغة على معنيين : (٤٧)

أحدهما : الذعر ، وهو المعنى المتداول الشائع .

والآخر : الإغاثة والاستنجاد والاستصراخ ، ومنه قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع » (٤٨) .

وقد جمع استعمال اللفظ في القصة المعنيين معاً . فالأم مذعورة على ابنها لسقوطه على الأرض ، وهي مغيثة إياه بضمّه اليها . ومما زاد الاستعمال قوة ورود اللفظ بصيغة المبالغة ( فَعِل ) الدالة على الهيجان والخفة والاندفاع (٤٩) ، وهذا يبرز حركة الأم الداخلية أعني حركة مشاعرها وعواطفها .

هذا ما كان لنا من تحليل دلالي لعدد من المفردات التي وردت في القصة ، أمّا على مستوى تراكيبها فستتناول التراكيب الآتية :

ـ «لابد أنّ ما سمعته لم يكن سوى حلم مزعج ، أو ربما كان كل ما حدث مجرد سوء فهم ... (٥٠) .

إنّ سلامة التركيب تقتضي اقتران ( لابد ) بحرف الجر ( من ) (٥١) ،

(٤٦) مجموعة : حكايات الحرب : ١٢ .

(٤٧) ينظر : الكامل ، المبرد ، : تح: محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ٣/١ // المقاييس : ٥٠١/٤ .

(٤٨) الفائق في غريب الحديث ، الزمخشري ، تح : علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ، ط٢ : ٢٧٤/٢ .

(٤٩) معاني الأبنية في العربية : ١١٧ .

(٥٠) مجموعة : حكايات الحرب : ١١ .

(٥١) ينظر : اصلاح المنطق ، ابن السكيت ، : أحمد محمد شاكر ، عبدالسلام هارون ، دار المعارف ، مصر ، ط٣ : ٣٨٩.// الزاهر ، ابن الأنباري ، تح د. حاتم الضامن دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٧٩ : ٦٢١/١ // الصحاح : ٤٤٥/٢ .

فيكون التركيب : لابد من أنّ ..ّ ومعناه :لا فراق منه ،ولا بعد عنه(٥٢) وتفيد دلالته الإلزام والوجوب ، وهو من قول العرب : قدّ أبَدّ الرجلُ القوم ، وقد أبَدّ الراعي الوحش إذا ألزم كل واحد منهما حتفه (٥٣) ، ولا يستقيم استعمال القاص لهذا التركيب دلالياً مع سياق النص ؛ لأن السياق يشير إلى شك وتردد بين تصديق الأم للنبأ وتكذيبها له ، ويؤيد هذا استعمال ( أو) حرف العطف الذي يفيد الشك ، واستعمال ( ربّ) التي تفيد التقليل (٥٤) ، مما يوحي بالشك والاحتمال لا التقرير الجازم والوجوب .

— « وهو يقف مع مجموعة من الجند على قمة جبلٍ أشيب مكلل بالثلج المندغم بالغيوم الرائعة كالماء» (٥٥) .

يبدو لنا أنّ قوله : «مكلل» بالثلج يثير إشكالاً دلالياً ؛ لأنّ لفظ ( الأشيب ) يعني : المبيض الرأس (٥٦) . ويدل هذا على أنّ قمة الجبل مغطاة بالثلج ، وأما ( الإكليل ) فشبه عصابة تزين بالجوهر ، ويسمى التاج إكليلاً ،ومفاد التعبير الذي استعمله القاص أنّ الثلج قد أحاط بقمة الجبل ، فهل الثلج قد غطى قمة الجبل أم أحاط بها ؟ ولو كان التركيب : على قمة جبل أشيب مندغم بالغيوم . لكان أنفى للإشكال الدلالي ، واستعمال العرب للفظ أشيب وشيب يؤيد ذلك ، فالشيبُ : الجبال يقع عليها الثلج فتشيب به

وقد أعطت مفردة (المندغم) الصورة حركة تفاعلت فيها دلالة المادة اللغوية مع الصيغة ، إذ تدلّ مادتها على الإدخال ، يقال : أدغمتُ الفرسَ اللجامَ : إذا أدخلته في فيه ،ومنه إدغام الحروف (٥٧) وتدلّ صيغة الفعل على المطاوعة ،

(٥٢) الصحاح : ٤٤٥/٢// المقاييس : ١٧٦/١ .
(٥٣) ينظر : الزاهر : ٦٢١/١ .
(٥٤) = الجنى الداني في حروف المعاني ، المرادي ، تح : طه محسن ، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ، الموصل ، ١٩٧٦ : ٢٤٥ ، ٤١٧ .
(٥٥) مجموعة : حكايات الحرب : ١١ .
(٥٦) مختار الصحاح ، أبو بكر الرازي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٨١ : ٣٥٢.
(٥٧) الصحاح : ١٦٠/١ .

وفائدتها أنّ أثر الفعل يظهر على مفعوله فكأنّه استجاب له (٥٨) ، وهذا يعني : أنّ فاعلية الاندغام كانت للجبل الأشيب الذي تطاول في ارتفاعه فعلا الغيوم فاندغم ثلجه بها .

وثمة مفارقة دلالية في استعمال لفظ (الرائقة) وصفاً للغيوم ، فقد أراد القاص أن يصف الغيوم بالصفاء الذي يشبه الماء في صفائه ، في حين أننا نجد أنّ من معاني المادة اللغوية المطر والوبل ، فيقال : ألقت السحابة أرواقها ، وذلك إذا ألـحّت بمطرها وثبتت (٥٩) ، هذا فضلاً عن أنّ السماء تكون رائقة إذا تـنـقّـت من الغيوم .

ـ « كان الفتى يتطلّع صوب الأشجار الجليلة الأثيثة الأعالي » (٦٠) :

يكتنف هذا التركيب عدداً من المفردات ذوات الدلالة المركزة ، المرتبطة بوشائج معنوية ، يكشف عنها التحليل الدلالي للتركيب ، فقد ورد خبر فعل الكينونة بصيغة الجملة الفعلية التي فعلها مضارع ممّا يشير إلى الحدوث والتجدد ، ويقوي هذا المعنى ورود الفعل المضارع بصيغة (يتـفـعّـل) الدالة على الرغبة في حصول الفعل له واجتهاده في سبيل ذلك ، ولا يكون ذلك إلاّ في الصفات الحميدة (٦١) وإذا ماعرفنا أنّ مادة الفعل اللغوية تدل على الظهور والبروز (٦٢) تبيّن لنا قيمة ذلك في إبراز البعد الداخلي للشخصية الرئيسة في القصة (الشهيد) ، فالفتى كان يتطلع صوب الأشجار ، وتأخذ مفردة (صوب) موضعها الدقيق من الاستعمال ، فمادتها تدلّ على نزول شيء واستقراره قراره (٦٣) وكلّ نازل من عُلْوٍ إلى سُفْلٍ ، فقد صاب يصوبُ ، قال الشاعر (٦٤) :

(٥٨) م . ن : ٥/١٩٢٠ .
(٥٩) ينظر : التطبيق الصرفي ، د. عبده الراجحي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٩ . ٣٧ .
(٦٠) مجموعة : حكايات الحرب : ١١ .
(٦١) التطبيق الصرفي : ٣٩ .
(٦٢) المقاييس : ٣/٤١٩ .
(٦٣) المقاييس : ٣/٣١٧ .
(٦٤) لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت : ١/٥٣٤ .

كأنهم صابَتْ عليهم سحابةٌ صواعقها لطيرهنّ دبيب

والتصوّب : حَدَبٌ في حُدر ، والتصوّب : الانحدارُ ، والتصويبُ ، خلافُ التصعيد ، وصوّب رأسه خفضه ، والإصابةُ : خلاف الإصعاد ..قال كثيرٌ عزّة (٦٥) :

ويَصدرُ شتّى من مصيبٍ ومُصْعِد إذا ماخلَتْ ، ممّن يحلّ ، المنازلُ

فهذا يعني أنّ الفتى كان مشرفاً على الأشجار ، وهذا يتسّق مع كونه فوق قمّة الجبل ، وفي اللفظ أيضاً الدلالة على القصد والجهة ، فالعرب تقول للسائر في فلاة يقطع بالحدس ، إذا زاغ عن القصد : أقمْ صَوَبَكَ أي : قصدك ، وفلان مستقيم الصوب إذا لم يزغ عن قصده يميناً وشمالاً في مسيره (٦٦) . فيتعيّن أن قصد الفتى (وجهته) كانت الأشجار الجليلة الأثيثة الأعالي ، فقد وصف الأشجار بالعظمة وكثرة الأعالي ، هذا فضلاً عن أنّ «الشين والجيم والراء أصلان متداخلان ، يقرب بعضهما من بعض ، ولا يخلو معناهما من تداخل الشيء بعضه في بعض ، ومن علو في شيء وارتفاع ... ويقال : شجرت الشيء إذا تدلى فرفعته (٦٧) ، فالأشجار إذن فيها معنى التداخل والعلو والارتفاع ، والسؤال : ماذا وراء هذه المفردات ووراء معناها المشترك ؟

إذا طبقنا فكرة أنّ هناك ظواهر غير متشابهة تماماً بيد أنّها تحمل بنية واحدة يمكننا أن نستنبطن من خلالها اللاوعي الإنساني ، بناء على ذلك فقد ظن بعض الباحثين (٦٨) وافترض أن بمستطاع الشجرة أن تكونَ رمزاً للذكر وبأنّ الناس في الغالب حين يتحدثون عن الأشجار فهم يقصدون الأعضاء الذكورية ، ولو أنهم لايدركون ذلك تماماً ، بل قد يبتعد المرء أكثر ويناقش فيقول : إنّ الدليل الوحيد الذي نملكه لوجود العقل اللاواعي هو إدراكنا

(٦٥) اللسان : ٥٣٤/١ .
(٦٦) اللسان : ٥٣٦/١ .
(٦٧) المقاييس : ٢٤٦/٣-٢٤٧ .
(٦٨) حين ينكسر الغصن الذهبي بنيوية ام طبولوجيا ،بيترمونز ، ترجمة : صبار سعدون السعدون ، مراجعة : جبرا ابراهيم جبرا ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٦ ، ٢٢ .

للتشابه في البنية ، وبما أننا لا نستطيع أصلاً أن ندرك الرغبة غير الواعية في التفكير بالعضو الذكر ، لذا يمكننا القول بالتشابه البنيوي بين الشجرة وعضو الذكر لدى ورود كلمة الشجرة نفسها ، ويبدو لنا أن التشابه البنيوي بينهما لايعتمد الشكل ، وإنّما يتعدّى ذلك الى المضمون ، فالشجرة في الفكر الديني لها مضامين كثيرة منها الخلود ، قال تعالى — : «فَوَسْوَسَ إِلَيهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَايَبْلَى ، فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى»(٦٩) . فقد لمس الشيطانُ في نفس آدم الموضع الحسّاس ، ذلك أنّ العمر البشريّ محدود ، والقوّة البشرية محدودة مما يجعل الإنسان يتطلّع إلى الحياة الطويلة وإلى الملك الطويل ، ولهذا ارتكب آدم المحظور تطلعاً إلى الخلود ، ونتج عن ذلك أنْ بدت السوءآت الحسية له ولزوجه ، إيذاناً باستيقاظ الدوافع الجنسية في كيانهما ، وربّما كان حظر هذه الشجرة عليهما لأنّ ثمارها مما يوقظ هذه الدوافع في الجسم — تأجيلاً لها حقبةً من الزمان كما يشاء الله ، وربّما كان نسيانهما عهد الله وعصيانهما له تبعه هبوط في عزيمتهما وانقطاع عن الصلة بخالقهما فسيطرت عليهما دوافع الجسد وتنبهت فيهما دوافع الجنس ، وربّما كانت الرغبة في الخلود قد تجسمت في استيقاظ الدوافع الجنسية للتناسل ، فهذه هي الوسيله الميسرة للإنسان للامتداد وراء العمر الفردي المحدود (٧٠) . وكل هذا مجرد حدس قد يزيل الابهام القائم في ماهية الشجرة المحرمة .

وقد يعدّ تطلّع الفتى إلى الاشجار الجليلة الأثيثة الأعالي إشارة إلى تطلعه للخلود ، الذي لم يتحقق عن طريق الزواج الذي رغّبته فيه والدته «تزوّج ياولدي ولأفرح برؤية ذرّيتك قبل أن أموت .. تزوّج فقد بدأت أشعر بالتعب ولكم فرحت عندما قال لها : سأدلّك على المرأه التي أُحبّ (٧١) . فالرغبة

(٦٩) سورة طه : الآيتان ١٢١ ، ١٢٢ .

(٧٠) ينظر : في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٦٧ : ٥/٥٠١ .

(٧١) مجموعة : حكايات الحرب : ١٤ .

في الخلود والامتداد تتمثل في الذرية التي تقابل الموت والتعب كما يتضح في تصور الأم ، ولكنّ الزواج لم يقع لأن الله قد اختار للفتى الاستشهاد الذي هو الحالة الكبيرة للخلود ، قال تعالى — : (ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربّهم يُرزقون) (٧٢) ، وقد تمثلت هذه الحالة في المشهد الأخير من القصة «أحسّت الأم أنّ العلم الذي يلفّ التابوت قد أصبح بحجم السماء وغطى الأفق الذي بدأ رائقاً وأن طيراً لامثيل لبهائه النوراني يخرج من التابوت ويفرد جناحيه محلّقاً صوب الجنة» (٧٣) .

ويلحظ أنّ القاص بدل أن يصف رغبة الفتى بالخلود وصفاً حرفياً استعمل الإشارة الى الأشجار الجليلة الأثيثة الأعالي رمزاً لرغبته ، وبدل أن يقرر حقيقة خلود الشهيد أشار إلى الطير النوراني الذي خرج من التابوت رمزاً لذلك ، «والرمز في هذا المعنى هو ماوصفه ت. س اليوت .. بمصطلح المعادل الموضوعي ، ومن نافلة القول الإشارة إلى أن المعادل الموضوعي الذي يحدد على هذا النحو ليس سبباً لحالة الشعور ، والأصح أن نقول بأن المعادل الموضوعي رمز لحالة الشعور (٧٤) .

ويبدو أنّ لجوء القاص إلى استعمال المعادل الموضوعي يكمن في أن الرغبة في الخلود حالة غير محدد، المعالم فيها شيء من الغموض نحتاج إلى ربطها بشيء معين ليتضح الإحساس بها ويتجسّد ولكن هذا النوع من الإحساس يبقى كبيراً ويبقى معادله الموضوعي ملتبساً بمرموزات إليها متعددة ، ربّما تسبب نقصاً في الفهم وغموضاً في عملية التوصيل .

— «وإذ يتعثّر فيسقط على الأرض ، يغادر قلبها صدرها هلعاً ، فتهرع إليه مندفعةً كسهم ضالٍ وتضمّه إلى روحها الفزعة» (٧٥):

(٧٢) سورة آل عمران ، الآية ١٦٩ .
(٧٣) مجموعة : حكايات الحرب : ١٤ .
(٧٤) ينظر : حين ينكسر الغصن الذهبي : ٩٤ .
(٧٥) مجموعة : حكايات الحرب : ١٢ .

تشكل هذا التركيب من خلال عدة أفعال ومشتقات تجمع بينها الحركة ، وبالرجوع إلى الموروث الدلالي لمفردات التركيب تتبين لنا العلاقات المعنوية بينها ، فالعثرة الزلة ، وبين التعثر والسقوط علاقة سببية ، ولذا عطف الكاتب بالفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب ويترتب على ذلك هلع الأمّ على صبيّها وماينتج عنه من مغادرة قلبها لصدرها ، ويبدو لأول وهلة أن استعمال الفعل (يغادر) استعمال عاديّ غير فنيّ ؛ لأنّ المغادرة ترك الشيء ، ولكننا نلمح في الفعل دلالته على الترك عند الحاجة للتارك ؛ لأنّ الغدير – وهو القطعة من الماء يغادرها السيل – إنّما سمّي غديراً ، لأنه يغدر بأهله ، اي : ينقطع عند شدّة الحاجة إليه (٧٦). وما أحوج الإنسان إلى قلبه فبه تقوم حياته ،ولكن مع ذلك يغادر القلب صدر الأم لكي يضمّ الصبيّ ، فالفعل يجسّد مشاعر الامومة الصادقة.

ويزيد التمييز (لعاً) الذي هو أفحش الجزع دلالاً على سرعة وحدّة ،إذ يُقال : رَجُلٌ هُلَعَة : اذا كان يهلع ويجزع ويستجيع سريعاً ، وناقة هلواعٌ وهلواعة : سريعة حديدة ، وذئب هُلَعٌ من الحرص والهالعُ : النعام السريع في مُضمِيّه (٧٧) .

وللفعل (تُهْرَعُ) دلالة توحي ببعد داخلي في شخصية الأم ودافعها السلوكي ، والفعل الذي تشبه صيغته أن يكون مبنياً للمجهول يتضمّن أن فاعل الحدث هو المفعول نفسه ، مما يشير إلى العاطفة التي حركت الأم –وهي جزء من وجودها– ولا يكون الإهراع إلا إسراعاً مع رعدة(٧٨) ، ويبدو أن الجذر اللغوي للفظ حامل أكثر من دلالة فهو دال على حركة تعكس دوافع الإنسان وتصور مشاعره وترسم البعد الداخلي له ، فيقال : أهرعَ الرجل : ارتعد

(٧٦) الصحاح : ٦٧٦/٢-٦٧٧ .
(٧٧) الصحاح : ١٣٠٨/٣ .
(٧٨) ينظر : التفسير الكبير ، الفخر الرازي ، دار الكتب العلمية ، ط٢ : ٣٢/٨//الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٥٢ : ٧٤/٩ .

فرقاً (٧٩) ، ورجل هِرِعٌ : سريع البكاء ، والهَرِعَةُ : المرأة التي تنزل حين يخالطها الرجل ، والمهروع المجنون الذي يصرع ، والهيرَعُ : الجبان الضعيف (٨٠) ، أو الأحمق لاضطراب رأيه (٨١) .

ومن هذا نجد أنّ الفعل ذو دلالة موحية بإسراع الأم مدفوعة بعاطفة الأمومة ،وفي ذلك مالا يخفى من الحركة الحسية التي شكلتها رعدة هذه العاطفة فضلاً عن أنّ بعض الاستعمالات اللغوية للفعل تشير إلى حالة تحفّز للدفاع أو الهجوم ، إذ يقال : تهرّعت الرّماح :أقبلت شوارع (٨٢) ،واستيحاء هذا المعنى يرفد فعل الأم ببعد دلالي آخر .

وإذا كنّا قد لمحنا تداخل الفاعل والمفعول في الفعل(تُهْرَعُ)فاستعمال اسم الفاعل (مندفعة) مشتقاً من الفعل (اندفع )المطاوع يأتي متسقاً مع ذلك التداخل فالصيغة هنا تنبيء عن أنّ أثر الفعل يظهر على مفعوله فكأنه استجاب له (٨٣) والاتساق الآخر دلالة الاندفاع على تنمية الشيء ،فالسيل العظيم مثلاً يُسمّى دُفّاعاً ؛ لأن بعضه يدفع بعضاً (٨٤) فوجود الأم كلّه شرع بعضه يدفع بعضاً .

وثمّة مأخذ على التشبيه الوارد في هذا التركيب: ذلك أنّ اندفاع الأم نحو صبيّها كان اندفاعاً واعياً محدد الاتجاه ، بعكس اندفاع السهم الضال ،لأن المعنى الذي يدل عليه لفظ (ضال) ، هو ضياع الشيء ، وذهابه في غير جهته (٨٥) .

---

(٧٩) المقاييس : ٤٧/٦ .
(٨٠) الصحاح : ١٣٠٦/٣// الأفعال ، ابن القوطية ، عالم الكتب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٣ ، ٣٣٩/٣ .
(٨١) المقاييس : ٤٧/٦ .
(٨٢) المقاييس : ٤٧/٦ .
(٨٣) التطبيق الصرفي : ٣٧ .
(٨٤) المقاييس : ٢٨٨/٢-٢٨٩ .
(٨٥) المقاييس : ٣ /٣٥٦ .

– كم من المرّات حاولت أن تقنعه بالزواج ، وكم مرّةٍ أرجأ الأمر معللا السبب بأنّ الحياة ستكون أجمل عندما تنتهي الحرب (٨٦) .

نلحظ في هذه التراكيب أموراً تضرّ بالمستوى الدلالي فيها ، فقد جمع القاص أولاً بين (كم) الخبرية و (من) الجارة ، علماً أن (كم) الخبرية بمعنى كثير ، و (من) الجارة إمّا أن تكون تبعيضية ، ويكون هذا جمعاً بين نقيضين لايستقيم المعنى بهما ، وإمّا أن تكون لبيان الجنس وعلامتها أن يجعل (الذي) مكانها (٨٧) ، وعلى هذا التقدير لايستقيم المعنى أيضاً ، فينبغي أن ترفع (من) الجارة من العبارة ، كما فعل القاص في التركيب الثاني (وكم مرةٍ) ، ولاشك في أنّ (كم) الخبرية يكون تمييزها مفرداً أو جمعاً (٨٨) كما جمع القاص بين العلة و السبب ثانياً ، علماً أنّ السبب طريق يوصل إلى الحكم غير مؤثر فيه ، والعلة يتوقف عليها وجود الشيء ، وتكون خارجة عنه مؤثرة فيه (٨٩) . وبناء على هذا يكون التركيب : وكم مرّة أرجأ الأمر معللاً ذلك أن الحياة ستكون أجمل عندما تنتهي الحرب ؛ لأنّ كون الحياة أجمل عندما تنتهي الحرب علة لإرجاء أمر الزواج ، فهي خارجة عنه لكنّها مؤثرة فيه ؛ ويمكن الاستغناء عن الباء التي تفيد التعليل (٩٠) لوجود الفعل الدال على معناها .

ومن كلّ هذا نرى أنّ ثمّة قضية يمكن أن يبحثها النقد اللغوي في النصوص الابداعية ، لاتتناول فصاحة المفردة أو سلامة التركيب النحوي فحسب ، وإنما تتناول تفسير نتاج معاني الوحدة المعجمية المكونة للتراكيب والجمل ، أو مايسمى التركيب الدلالي السليم ، الذي يعتمد المعرفة بالموروث وبالمُبْتَدَع أساساً في عملية التوصيل بين المبدع والمتلقي ، لكي تقوى الصلة بين الأدب واللغة لنقل الفكر الإنساني بين الباث والمتلقي .

(٨٦) مجموعة : حكايات الحرب : ١٣ .
(٨٧) ينظر : الجنى الداني : ٣١٥ .
(٨٨) = مغني اللبيب ، ابن هشام ، تح : محمد محيي الدين عبدالحميد ، مطبعة المدني ، القاهرة : ١/١٨٣-١٨٥ .
(٨٩) = التعريفات ، السيد الشريف الجرجاني ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٦ : ٦٨ ، ٨٨ .
(٩٠) = : الجنى الداني : ١٠٤ .